الأعمال الكاملة



التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية

ما له وما عليه

أ.د. أحمد الريسوني

أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة



التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية

ما له وما عليه

أ. د/ أحمد الريسوني

أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة

دار الكلمة
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بطاقة الفهرسة

الريسوني ، أحمد

التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية ماله وما عليه

أ.د/ أحمد الريسوني . ط١ . المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣

٦٤ص ، ٢٠ سم

رقم الإيداع: ١٩٤٥٤ / ٢٠١٢م

تـ.مك: ٩ - ٣٧٥ - ٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema


التعدد التنظيمي
للحركة الإسلامية
ما له وما عليه


بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا هذه الطبعة ؟



لماذا هذه الطبعة ؟

يأتي هذا الكتاب بعد عدد غير قليل من منشورات الدار للدكتور/ أحمد الريسوني ، وقد شرفت الدار بطباعة كل ما كتبه الدكتور من مؤلفات وتجميعات لحوارات ومقالات ابتداء من رسالة الدكتوراه ، وهي نظرية التقريب والتغليب ، ثم رسالة الماجستير (نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، ثم المدخل إلى مقاصد الشريعة ، وكذلك كليات الشريعة ، وكذلك الفكر المقاصدي ، ثم قمنا بنشر عدد من الكتب، التي حوت مقالات وحوارات ، مثل :

١- أبحاث في الميدان .

٢- مراجعات ومدافعات .

٣- الأمة هي الأصل .

٤- الفكر الإسلامي وقضايا السياسة المعاصرة .

٥- حكم الأغلبية ، وهو جزء من رسالة الدكتوراه .

٦- آخر هذه الكتب كتاب : فقه الاحتجاج والتغيير، الذي جاء معبرًا عن جروح الربيع العربي .

وجاءت بعد كل ذلك الطبعة الجديدة من كتاب التعدد التنظيمي والذي نشر أكثر من مرة ليأتي مواكبًا للأحداث في الربيع العربي ، وقد تغيرت

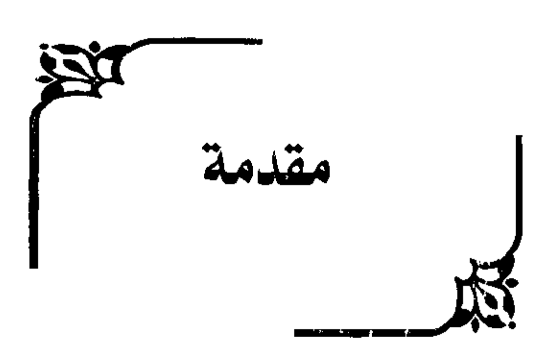
السياسة في البلدان العربية ، وأصبح الاتجاه الإسلامي بتعدداته يمثل النسبة الغالبة في الواقع السياسي وأصبح يشكل الحكومات في عدد من الدول مثل : المغرب ، تونس ، ليبيا ، ومصر على الأبواب .

لذا رأيت إعادة نشر هذا الكتاب ليكون بين يدي الاتجاهات الإسلامية جميعها حتى نستطيع أن نقرب وجهات النظر ونقلل من نقاط الخلاف ونعظم من نقاط الاتفاق حتى نستطيع جميعًا أن نقدم المشروع الإسلامي في الصورة الصحيحة له ، ولا تكون تفرقاتنا واختلافاتنا سببًا أو جزءًا من محاولات إفشال المشروع الإسلامي .

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب الجميع ، ويكون رسالة إلى كل العاملين في الحقل الإسلامي .

جزى الله الدكتور الريسوني خيرًا، ونفع به الأمة ، وجعل هذا الجهد في ميزان حسناته .

محمد أبو عجور



مقدمة

مقدمة

مسألة التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية إنما هي جزء من مسألة الاختلاف عمومًا ، والاختلاف بين المسلمين خصوصًا ، فالاختلاف التنظيمي الحركي هو وجه « متطور » من وجوه الاختلاف بين الناس ، اختلافهم في تفكيرهم وتدبيرهم وسلوكهم وتمذهبهم .

بل إن الانتماء التنظيمي اليوم هو نوع من التمذهب . ولهذا فالكتابة في موضوع التعدد التنظيمي للحركات الإصلاحية الإسلامية تستدعي التطرق حتمًا إلى بعض « مسائل الخلاف »[(١)].

وقد حاولت - وأنا أهم بكتابة هذا البحث عن التعدد التنظيمي للحركات الإسلامية - أن أتحاشى التطرق إلى موضوع الاختلاف باعتبار أن عددًا من العلماء والباحثين قد تناولوا هذا الموضوع حديثًا ، يأتي في طليعتهم الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني بكتابه الرائد (**أدب الاختلاف في الإسلام**) ، والعلامة الشيخ يوسف القرضاوي بالعديد من أبحاثه ومقالاته ، ولعل أهمها كتاب (**الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم**) . وكذلك الداعية المفكر الشيخ محمد الغزالي في الكثير من كتاباته مثل (**دستور الوحدة الثقافية للمسلمين**) ، والدكتور الأستاذ عبد المجيد النجار في بحثه (**دور حرية**

---

(١) تحت هذا العنوان (مسائل الخلاف) أو ما يقاربه ، ألّف قدماء الأصوليين والفقهاء عشرات من المؤلفات . مما يدل على العناية الكبرى التي أولاها المتقدمون لموضوع الاختلاف وأسبابه وضوابطه .

الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين) والمفكر المستشار طارق البشري في عدد من أبحاثه ومقالاته، وغيرهم .

أقول : حاولت تحاشي أي كلام في المسائل العامة المتعلقة بموضوع الاختلاف، وبخاصة منها ما تناولته الكتابات المعاصرة المشار إليها، ولكن اعتبارات عدة قامت في وجهي، وحتمت عليَّ التعريج على مسألة الاختلاف وتناول موضوعي من خلالها، وأهم تلك الاعتبارات :

١- الارتباط العضوي بين الموضوعين، فكلاهما يتفرع عن الآخر في نوع من التسلسل والدوران، فإن كان التعدد التنظيمي الحزبي يتولد عن الاختلاف، فإنه كثيرًا ما تولدت الاختلافات عن التعدد الحركي، وهكذا .

٢- الحاجة ما زالت ماسة إلى تعالي الأصوات وتزايد الصراخ، تنبيهًا على خطورة المسألة، وتحذيرًا من مخاطرها المدمرة على الأمة الإسلامية وطاقاتها وآمالها وطموحاتها .

٣- مسألة الاختلاف، مع كل ما كتب فيها، ما زال بها احتياج ومتسع لمزيد من البيان والتحليل، والإضافة والتكميل .

٤- يرجى أن تسفر الكتابات الكثيرة في الموضوع، ومن قِبَل علماء وباحثين متعددين، عن مجموعة من « الإجماعات » في « فقه الاختلاف »، وهي إما إجماعات قديمة جرى خرقها ونسيانها، فنعمل اليوم على بعثها وإثباتها وتوضيحها، وتجديد الاتفاق حولها، وترويجها بين المسلمين عامة وفي صفوف الحركات الإسلامية خاصة، وإما إجماعات جديدة، وهي الأهم، تتعلق بما

جد بين المسلمين من اختلافات ، ومن أشكال جديدة للاختلاف ، مع ما أثير حول هذه وتلك من قضايا فكرية تنظيرية ، أو لِنَقُلْ : من مسائل ذات طبيعة أصولية تقعيدية . ولاشك أن مثل هذه الإجماعات الجديدة المرجوة إذا انعقدت واستتبَّت ـ وقد بدأ ذلك يحصل ـ ستصبح أصولاً وقواعد مُحكمة بين الإسلاميين في خلافاتهم النظرية والحركية ، وفي علاقاتهم ، ومواقفهم العملية .

فلأجل هذه الاعتبارات مجتمعة سأقف قليلاً عند بعض « مسائل الخلاف » تأسيسًا وتمهيدًا للدخول في موضوع التعدد التنظيمي للحركات الإسلامية .

*****

الخلاف واقع لا يرتفع

هذه أولى المسلّمات التي ينبغي ألا يستمر فيها أي نقاش نظري ، ولا أي عراك عملي ، فالخلاف بين الناس أمر واقع ولن يرتفع ، وكل أمل في القضاء عليه ومحوه فهو وهم وسراب ، وكل مجهود يبذل لرفعه فهو مجرد خسارة لا ينتظر منها سوى اليأس . فليس أمامنا سوى أن نسلم بالخلاف ونحسن التعامل معه والاستفادة منه ، هذا هو الممكن فلنتحرك في حيز الإمكان .

واختلاف الخلق ليس قدرًا مستقلاً سلَّطه الله عليهم وابتلاهم به ، بل هو جزء من طبيعتهم ولازم من لوازمها ، فهو جزء من قدرهم العام الذي هو كونهم مخلوقين قاصرين ، يجهلون أكثر مما يعلمون ، ويعجزون أكثر مما يقدرون ، ويخطئون ويصيبون .

ولو أردنا أن نتصور خلقًا لا يختلفون لكان علينا أن نتصورهم يعلمون كل شيء ، ولا يخطئون في أي شيء ، ولا يعجزون عن أي شيء! وليس هذا إلا لمن أحاط بكل شيء علمًا ، وأحصى كل شيء عددًا ، سبحانه لا إله غيره .

أما الخلق فما داموا يتفاوتون في العلم والإدراك والتجربة والخبرة والتذكر والنسيان ، فلابد أن تختلف تقديراتهم وتفسيراتهم وتوقعاتهم ، فتختلف لذلك مواقفهم واختياراتهم ، وهذا ما لخصه العلامة ابن المرتضى في كلمة جمعة قال فيها : « علة الاختلاف : التفاضل في العلم » [(١)].

---

(١) إيثار الحق على الخلق (ص٨٩) .

وينضاف إلى هذا العنصر عنصر آخر هو أيضًا جزء من قدَر الإنسان وقدْره ، وهو خضوعه ـ بصفة عامة ـ للشهوات والأهواء ، مع التفاوت في ذلك من شخص آخر ، ومن ظرف لآخر . فهذا العنصر أيضًا يُنتج ـ ولابد ـ اختلافات لا حصر لها في الآراء والأقوال والأفعال . ولست أقصد بالشهوات والأهواء ما هو محرم أو مذموم فحسب ، بل حتى ما هو مباح منها أو مستحب ، كتلك المذكورة في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤] ، فكل الناس ـ كما نصت الآية ويشهد الواقع ـ يحبون هذه الأمور ، أي : يحبونها ويشتهونها ويحرصون عليها ، والشاهد عندي في ذلك هو أنهم يتفاوتون في حبها والعمل لأجل تحصيلها واستدامتها تفاوتًا كبيرًا وكبيرًا جدًا ؛ فبينما يغرق كثير من الناس في حبه والتعلق بها درجات أو دركات ، يتسامى آخرون في التعقل والاعتدال تجاهها مراتب ومقامات . وبناء على هذه الدرجات من الحرص والتعلق بالشهوات والأهواء ـ وخاصة فيما هو مباح منها ـ تختلف آراء الناس وتصرفاتهم واختياراتهم .

ومن هذا القبيل تفاوت الناس في طباعهم وأمزجتهم ودرجة عاطفيتهم ، وفي هذا يقول الإمام الغزالي : « ... ولكن اختلاف الأخلاق والأحوال والممارسات يوجب اختلاف الظنون[1] ... فمن غلب عليه الغضب مالت نفسه إلى كل ما فيه شهامة وانتقام ، ومن لان طبعه ورق قلبه نفر عن ذلك ،

---

(١) الظنون : تعني الآراء والتقديرات .

ومال إلى ما فيه الرفق والمساهلة »[١] فما أكثر الآراء والمواقف والاختيارات التي لا تعدو أن تكون انعكاسًا، ونتيجة لهذه الاختلافات الطبيعية والنفسية، أو على الأقل تجيء متأثرة بها.

وهكذا نرى جليًا أن الاختلاف الخِلْقي هو أحد المنابع الأساسية للاختلاف الكسبي، وما دام هذا المنبع لا سبيل إلى إزالته، فلا سبيل إلى إزالة الخلاف رأسًا واستئصاله كلية، وستظل خلافات لا حصر لها تتخلل حياة الناس وعلاقاتهم. فعلينا أن نعترف بهذا الواقع وننظر في أحسن السبل للتعامل معه.

*****

(١) المستصفى (٢/ ٣٦٥، ٣٦٦).

الخلاف مقرر شرعًا

شريعة الإسلام - كما هو معلوم - وهي شريعة الفطرة ، بمعنى أنها بنيت وفق ما تقتضيه الفطرة ، ووفق حاجات الفطرة ، وأعني بالفطرة هنا كل ما خلق الله تعالى الناس عليه مما لا مدخل لهم فيه ، بما في ذلك شهواتهم ونقائصهم . وما دام الاختلاف بين الناس ترجع بعض أسبابه إلى عوامل مخلوقة فيهم ولازمة لهم ، فلابد أن تراعي الشريعة ذلك ، وأن تقرره وتبني عليه ، وهذا ما نجده بالفعل ، بحيث لا نجد في نصوص الشريعة وأحكامها ما يمنع الخلاف رأسًا ويسعى إلى محوه وتخليص الحياة منه ، بل الذي نجده هو الاعتراف بواقع الخلاف والتقرير لصور عديدة منه ، ووضع الحدود والضابط له ، كما هو الشأن في سائر ما هو مباح بأصله ، مقيد بحدود وضوابط قد تجعله محرمًا أو مكروهًا في حالات ، أو تجعله مشروطًا بشروط .

فمن التنبيهات الشرعية على تقرير الخلاف والاعتراف به من حيث الأصل كون القرآن والسنة قد قصا علينا حالات من الاختلاف المشروع ، وهذه الاختلافات المحكية في نصوص القرآن والسنة وقعت بين المعصومين من الأنبياء والملائكة ، الذين تدل أفعالهم على الإباحة والمشروعية . فمن اختلافات الأنبياء ، ما حكاه القرآن الكريم عن داود وولده سليمان عليهما الصلاة والسلام ، في قوله سبحانه : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا

ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] .

فقد حكم كل من النبيين داود وسليمان في نازلة واحدة بحكمين مختلفين ، ومثل ذلك اختلافهما المذكور في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحديهما فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى . فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام ، فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا ، يرحمك الله ، هو ابنها فقضى به للصغرى!** »[1] .

وقد أخبرنا الله تعالى عن اختلاف موسى وأخيه هارون ـ وهما نبيان أيضًا ـ فقال عز وجل : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف] ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ ، وكان ما كان من عبادتهم للعجل الذهبي واضطرار هارون لتركهم على ذلك ، ثم قال سبحانه : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] .

---

(١) متفق عليه .

وكذلك اختلف موسى مع الخضر اختلافات عديدة وكلاهما نبي ، وقد فصل الله تعالى ذلك في سورة الكهف .

واختلف موسى أيضًا مع آدم عليهما الصلاة والسلام ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟! فقال له آدم : وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، ثم تلومني على أمر قدر عليَّ قبل أن أخلق؟! ...** »[١].

وهناك الاختلاف المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] ، والملائكة تختلف أيضًا ، كما يشير إلى ذلك أمره تعالى لنبيه ﷺ أن يقول : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [ص] .

ومن اختلافات الملائكة ما جاء في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس ، ثم خرج متوجهًا إلى بلد آخر طلبًا للتوبة وإصلاح حاله ، فمات في الطريق فتنازعته واختلفت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، حتى بعث الله من يفصل بينهم ... »[٢].

وأما الصحابة رضوان الله عليهم ، فإن « اختلافهم ... معلوم تواترًا » ، كما يقول الإمام الغزالي[٣]، ولذلك لا أطيل بذكر أمثلته ووقائعه .

---

(١) البخاري : كتاب بدء الخلق .

(٢) الحديث متفق عليه .

(٣) المستصفى (٢/ ٢٥) .

الاختلاف المشروع والاختلاف الممنوع

إذا كان الاختلاف مقررًا في الشرع ومسلمًا به ، فإن هذا لا يعني أن كل خلاف مشروع ، وأن باب الاختلاف مفتوح على مصراعيه بلا حدود ولا قيود . وكيف يظن هذا ، أو يقال ، وقد ورد في ذم الخلاف والتحذير من عواقبه ما ورد من آيات وأحاديث وآثار ؟

فالنظر في الأدلة المتعلقة بالاختلاف يفيدنا بأن الاختلاف ليس ممنوعًا بإطلاق ، وليس مشروعًا بإطلاق ، بل منه مشروع وممنوع ، والمشروع له حدود وقيود .

الاختلاف الممنوع :

وهو أنواع ، أهمها ثلاثة ، وهي : الاختلاف في أصول المعتقدات ، والاختلاف في المرجعيات ، والاختلاف المفضي إلى التفرق والتدابر .

١- الاختلاف في أصول المعتقدات :

وأخطرها الاختلاف في الإيمان بالله ، أو في توحيده ، أو في وجوب عبادته ، أو في الإيمان بالرسل واليوم الآخر ، فهو اختلاف إيمان وكفر ، ومعظم الآيات التي ورد فيها ذم الاختلاف والمختلفين تتعلق بهذا النوع من الاختلاف ، ويأتي ذلك صريحًا في بعضها ، أو مفهومها من السياق في بعضها الآخر ، وهذا بعض الأمثلة منها : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ

مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [مريم].

٢- الاختلاف في المرجعيات :

والمراد : ما يمكن الرجوع إليه لفض الخلافات والنزاعات كلها أو بعضها بحيث يكون المتخالفون مسلِّمين بحجيته وصلاحيته للتحكيم ، ويمثل ذلك في الكتب المنزلة ، وفي سنة الأنبياء وهديهم وفيما تتعارف عليه الجماعة وتلتزم به من مبادئ وقواعد ، ومصالح عامة وأهداف عليا ، تكون محل إجماع وتسليم . فإذا افتقدت هذه المرجعيات ، أو كانت هي نفسها محل اختلاف وتشكيك أو محل جحود وتمرد ، فإن اختلاف الناس يكون قد دخل في دائرة الحظر ودخل في مستوى خطير ينذر بالتمزق والتطاحن وتلاشي الكيان المشترك للجامعة ؟، وفقدانها لرسالتها المشتركة ، ولذلك ربط الله تعالى بين الاختلاف في مرجعية الكتاب ، وبين الدخول في خلافات لا حد لها ولمخاطرها : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة].

فالكتب التي ينزلها الله لعباده يكون في مقدمة أهدافها أن تتخذ مرجعًا محكَّمًا

في الاختلاف : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [النحل:٦٤] ، ولذلك لم يزل الله تعالى يأمر ويوصي برد الاختلافات إلى كتابه وإلى سنة نبيه ﷺ : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠] ، ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۝٥٩ ﴾ [النساء]

٣- اختلاف التفرق والتدابر :

وهو الوارد في قوله سبحانه : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، إلى أن قال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥ ﴾ [آل عمران] .

وفي هذا النوع من الاختلاف وردت مثل هذه التحذيرات : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۝١٥٩ ﴾ [الأنعام] .

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ [الروم] .

فهذه الأنواع من الاختلافات هي التي ورد فيها النهي والذم والتحذير نظرًا لخطورتها وصعوبة معالجتها والسيطرة عليها وعلى آثارها ، ولذلك ينبغي سد كل باب يفضي إليها . وهذه الأنواع الثلاثة كثيرًا ما تتلازم وتجتمع ويجر بعضها بعضًا ، ويتبع بعضها بعضًا ، ولكنها أيضًا قد تحصل متفرقة فيحصل نوع دون آخر ، أو يحصل اثنان دون الثالث ، والمهم أن الحظر الشرعي يشمل

كل واحد من هذه الأنواع ولو كان وحده ، فإذا انضاف إليه الثاني أو الثاني والثالث كان الحظر أشد .

ويجدر التنبيه على أن اختلافات المسلمين المحظورة عادة ما تنحصر في النوع الثالث ، باعتبار أن المخالف في النوعين الأول والثاني يكون قد خرج عن دائرة الإسلام . نعم وجدت في تاريخ المسلمين اختلافات فرعية في إطار النوع الأول ـ وأعني بها اختلافات الفرق الكلامية ـ وهي كثيرًا ما تدخل في نطاق الاختلاف الممنوع ، ولكن اتفاق الفرق المختلفة على أصول العقائد ، وعلى المرجعيات المحكَّمة كان يحد من استفحال تلك الخلافات ، ويقضي عليها أحيانًا ، إلا أن عصرنا هذا قد أَدخل على كيان الأمة اختلافًا خطيرًا يدخل في نطاق النوع الثاني أي : الاختلافات في المرجعيات ، ويتمثل ذلك في ظهور تيار بين أبناء المسلمين ، لا يدين بالتسليم والالتزام للمرجعية الإسلامية المتمثلة في القرآن والسنة وما انبثق عنهما من قيم وقواعد وتشريعات ، وهو التيار الذي يمكن جمع شتاته وألوانه تحت اسم (التيار العلماني) أو (التيار اللائكي) . فهذا التيار قد أحدث في الأمة اختلافًا من النوع الخطير ، وقد ساعده على الاستفحال والتمكن كونه يسبح في فلك المنظومة الغربية ويتغذى منها ، ويتقوى بها ، وهي المنظومة التي تهيمن اليوم على العالم ، وتتحكم فيه إلى حد بعيد ؛ ولذلك فكل من انتمى إليها أو تعلق بها ، لابد وأن يجد له مكانًا ومكانة ، وقد أجاد المستشار طارق البشري في تصوير خطورة هذا التيار وتحليل انعكاساته في عدد من كتاباته ، منها مقاله الذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي ضمن كتيب بعنوان (**مشكلتان وقراءة فيهما**) .

ومما قاله الأستاذ البشري في هذا الصدد : « نشكو من صدع هائل في حياتنا الفكرية والثقافية ورؤانا الحضارية ، هو صدع لا يشق المجتمع شقين فقط ، ولكنه يكاد أن يشق الفرد الواحد نصفين ، فكما أن التجزئة فصلتنا أقطارًا ، فإن هذا الصدع فصلنا وجدانيًا ، فجعل الأمة أمتين ، وصار القوم أقوامًا لا يجمعهم تكوين نفسي ومعنوي مشترك ، وقد انشق الضمير « نحن » أشطارًا ..

يقوم بيننا نظامان وأصلان للشرعية وإطاران مرجعيان : واحد ينحدر من التصور الإسلامي ، والآخر ورد من فلسفات الغرب ورؤاه .

إن مجتمعنا يشكو من هذا الازدواج في أطره المرجعية وأصول الشرعية النافذة فيه ، وإن قواه تنهد بقدر ما يقوم الصراع بين شقيه هذين »[١].

الاختلاف المشروع :

اتضح من قبل أن الإسلام يقر أصل الاختلاف بين الناس ويضفي المشروعية على كثير من الاختلافات ، ولذلك قص علينا حالات نموذجية منه تقدم ذكرها . وقال تعالى : ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف] ، فتلك القصص النموذجية قد صارت ـ بالإضافة إلى ما تواتر من اختلافات الصحابة ـ أصلا في جواز الاختلافات ومشروعيته .

ويؤكد ذلك أن الله ـ عز وجل ـ وإن كان قد أرسل رسله ، وأنزل كتبه ليجمع الناس على كلمة سواء ، ويقدم لهم القول الفصل فيما هم فيه مختلفون فإنه سبحانه لم

---

(١) مشكلتان وقراءة فيهما . للأستاذين طارق البشري وطه جابر العلواني ـ من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، (ص١٧، ١٨) .

يقصد إلى القضاء على كل ما يختلف الناس فيه ، وبيان حقيقته وحكمه ، ولذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل] ، وقال أيضًا : ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣] ، فالله جل وعلا أرسل رسله وأنزل كتبه لوضع حد لبعض الاختلافات التي لا يسوغ الاختلاف فيها ، ولكي تصبح مضامين تلك الكتب مراجع يحتكم إليها ويهتدى بها في حل كثير من الخلافات ، وفي هذا الإطار سيظل الناس يختلفون ويتفقون ، أوْ لا يتفقون ، في أمور كثيرة يهون الخلاف فيها إذا روعيت القيود والآداب التي تنظم الخلاف وتهذبه .

والخلاصة أن الشريعة لم تقصد إلى رفع الاختلاف ومحوه ، ولكنها قصدت إلى رفع بعض الاختلافات الخطيرة ، وإلى وضع إطار مرجعي يساعد على تقليل سائر أنواع الاختلاف ، وتهذيبها ودرء محاذيرها ، وهذه هي الخلافات المشروعة ، أي : التي تدور في إطار مرجعي جامع : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣] ، ويلتزم فيها بالآداب والضوابط التي وضعها ذلك الإطار المرجعي من المحافظة على الأخوة الإسلامية ، والصيانة لمقتضياتها المتمثلة في المودة والمحبة والتعاون والتآزر ، والتواصل والتفاهم ، غير ذلك مما هو معلوم في أحكام الشرع وآدابه . وحينئذ يكون الاختلاف نافعًا وبنّاء ، وحتى إذا نتجت عنه أضرار ، فإنه نفعه يكون أكبر من ضرره [١] .

---

(١) عن فوائد الخلاف ، انظر : (أدب الاختلاف في الإسلام) للدكتور : طه جابر العلواني (ص٢٥) ، و(الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) للدكتور يوسف القرضاوي (ص٧٠) وما بعدها ، و(ص٧٨) وما بعدها .

على أنه كلما أمكن الاستغناء عن التعدد التنظيمي ، فهو أفضل وأسلم ، وكلما أمكن تحقيق أشكال من التوحد والوحدة أكثر فأكثر فهو المطلوب شرعًا ، إذا الوضع السوي هو أن تجري الاختلافات داخل أسوار الوحدة والأخوة والتعاون والوئام .

*****

الاختلاف والتعدد
داخل الحركة الإسلامية

بعد هذه الوقفات القصيرة مع بعض مسائل الخلاف عامة ، أنتقل إلى الموضوع المقصود في هذا البحث ، وهو التعدد التنظيمي للحركات الإسلامية المعاصرة ، ومدى تلاؤمه أو تنافيه مع أحكام الشرع ومقاصده في هذا المجال ، ومدى ما يعود به هذا التعدد من فوائد أو أضرار على سير الحركة الإسلامية .

واضح أن الحركة الإسلامية ـ على اختلاف أقطارها وجماعاتها ـ ليس بينها اختلافات تذكر ، لا في المعتقدات ولا في المرجعيات ، فما هي أنواع الاختلاف التي تسود في صفوف الحركة الإسلامية ، والتي يعكسها ــ أو ينتجها ــ تعددها التنظيمي ؟ وما هي آثارها وأحكامها ؟

١- الاختلاف مع الائتلاف :

بعض الجماعات الإسلامية العاملة تسود بينها ـ على الرغم من اختلافها وتعددها التنظيمي ـ علاقات الوئام والتفاهم والتعاون والتنسيق فتعددها على هذه الصورة ، إذا لم يكن وراءه بواعث غير سليمة بحيث قد نشأ بكيفية عفوية أو دعت إليه مصالح معتبرة كالاختلاف في التخصص الإصلاحي والدعوي ، أو الاختلاف في طرقه ووسائله ، أو التعدد الذي يفرضه اختلاف الأقطار وتباعدها ... هذا التعدد يمكن اعتباره نموذجًا للتعدد التنظيمي المشروع ، فهو يعكس روح المبادرة إلى الخير والإصلاح ، التي يجب أن يتحلى بها كل المسلمين .

ثم هو تعدد لا يهدم أخوة المسلمين ووحدتهم ، بل يحافظ عليها في شكل تآزر وتناصر وتفاهم وتعاون . ثم بعد ذلك لكلٍ جبهته ولكلٍ ثغره ولكلٍ مشاريعه ولكلٍ مساعيه ، ولكلٍ ظروفه ، ومثل هذه الحالة لا يضيق بها إلا قصار النظر ، كالذي روى « أن بعض العباد كتب إلى الإمام مالك يحضه على الانفراد وترك مجالسة الناس ، فكتب إليه مالك يقول : إن الله قد قسم بين عباده الأعمال كما قسم الأرزاق ، فرب رجل فُتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصيام ، ورب رجل فتح له في الصيام ولم يفتح له في الصلاة ، ورب رجل فتح له في كذا ولم يفتح له في كذا .. فعدد أشياء ثم قال : وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه ، وكلانا على خير إن شاء الله والسلام »[1] .

فمثل هذا التنوع في الأفراد واستعداداتهم وميولهم هو ما يتشكل أحيانا في شكل هيئات جماعية ، واختيارات جماعية ، سواء على مستوى الأهداف و التخصصات أو على مستوى الوسائل والمسالك . وبالنظر إلى واقعنا اليوم ، نجد أن التغيير الإسلامي المنشود ، يواجه أوضاعاً جد معقدة ، وآفات مستحكمة ، ومفاسد راسخة ، بالإضافة إلى أعداء ومعارضين ، قد نعجز حتى عن مجرد التصور لإمكاناتهم ومخططاتهم وتحركاتهم : ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، وهذا يقتضي سلوك جميع المسالك المؤدية ، ونهج جميع المناهج المؤثرة ، واستعمال جميع الوسائل الممكنة . فالتغيير المنشود لا يرمي إلي تغيير شيء واحد محدد ، ولا يرمي إلي إصلاح عطب معين ولا يعالج

---

(١) المقدمات الممهدات ، لابن رشد الجد ، ط١. مصر .

آفة اجتماعية ، أو مرضا نفسيا ، ولا يواجه هزيمة عسكرية أو أزمة اقتصادية ، ولا مشكلة سياسية ، بل يواجه ويعالج كل هذه الأمور مجتمعة وغيرها ، ويواجه منها القناطير المقنطرة ، وفي مناخٍ من الحرب والكيد ليلاً ونهارًا ، سرًا وجهرًا .

ثم إن تعدد المناهج الدعوية والإصلاحية ، المتبعة فعلاً ، هو أمر واقع لا يرتفع كما تقدم بيانه . ومن أسباب هذا التعدد وتعذر ارتفاعه أن لكل منهج فوائده المجربة وثمراته المجنية ، وما دام الأمر كذلك فلنترك المناهج التغييرية تتضافر وتتكامل ، وليس من المصلحة أن نعمل على تسفيه منهج ثبتت فائدته وجنيت ثمرته ، ولو كان غيره أنفع منه وأجدى ؛ لأن لكل منهج دورًا قد لا يؤديه غيره ، ولأن لكل واحد دورًا قد لا يحسن غيره . وقد نهينا أن نحقر من المعروف شيئًا ، ونهينا أن نبخس الناس أشياءهم .

وعلى هذا ، فمن اختاروا منهج الإصلاح التربوي والتعليمي - مثلاً - وراحوا يؤسسون المدارس النموذجية ويتفانون في توسيعها وإنجاحها أو راحوا يعمرون بيوت الله بالعلم والوعظ والتهذيب ، فلا شك أنهم عاملون للإسلام ومؤدون دورهم في الإصلاح والتغيير .

ومن نهجوا منهج العمل الشامل المتعدد الوجوه والتخصصات فهم أنفع وأصلح إذا وفَّوه حقه .

ومن سلكوا مسلك العمل من خلال المواقع والمؤسسات القائمة الشعبية والرسمية ، بقصد التأثير عليها وإصلاحها وتوظيفها في خدمة الإسلام والمسلمين ، فمسلكهم مشروع وحكيم ، وقد يحققون بمسلكهم هذا ما لا يتحقق بأي

مسلك آخر .

ومن ذهبوا إلى التميز والمفاصلة والتدافع الصريح ، وكانت ظروفهم تحتم ذلك ، ووضع هذا الاختيار في موضعه وقدر بظروفه وشروطه ، فذلك من الحق الذي أمر الله بالصبر عليه والتواصي به ، وهو يمثل عزة الإيمان واستعلاءه على الباطل .

وقد لا تسمح الظروف والإمكانات إلا بأعمال محدودة ، كالعمل الخيري ، أو العناية بتعليم القرآن وتحفيظه ، أو قد يجد بعض الناس في مثل هذا الاقتصار سبيلاً إلى سلامة أعمالهم ، أو سبيلاً إلى إتقانها وترقية فعاليتها ، فهذا سائغ إذا اقتضاه سبب من الأسباب المذكورة .

فإذا وجد الاختلاف والتعدد على هذا الأساس ولمثل هذه الاعتبارات فذلك سائغ بشرط المحافظة على ما تتمثل فيه وحدة المسلمين وأخوتهم من مودة وتواصل وتعاون وتآزر عند الحاجة .

٢- التعدد مع الانعزال :

وأعني بذلك أن يوجد تعدد في الجماعات العاملة ، مع انكفاء كل واحدة على ذاتها وعملها دونما تواصل ولا تشاور ولا تعاون مع الجماعة ــ أو الجماعات ـ الإسلامية الأخرى . فتكون هناك قطيعة أو شبه قطيعة مقصودة أو غير مقصودة .

وهذه الحالة لا تجوز إلا بصفة اضطرارية استثنائية ، لأنها تفضي إلى تفريق المسلمين وإضعاف أخوتهم وتعطيل وحدتهم ، ويكون إثم هذه القطيعة على

الجهة التي ترتضيها وتتمسك بها ، والواجب هو المبادرة للانتقال إلى الحالة الأولى حتى لا يقع الانتقال إلى الحالة الثالثة .

٣- التعدد مع التعادي والصراع :

وهذه أسوأ حالات التعدد ، بحيث توجد جماعات يسود بينها التعادي والتصارع ، لأنها داخلة بكل استحقاق في النوع الثالث من أنواع الاختلاف الثلاثة المحظورة ، وهو اختلاف الفرقة والتشيع اختلاف ﴿ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام:١٥٩] .

والتعادي الذي تقع فيه مثل هذه الجماعات له عدة درجات ، أو ـ على الأصح ـ له عدة دركات ، كلها داخلة تحت التحريم والوعيد الشرعيين .

فهناك الاحتقار والازدراء لأعمال الغير وجهودهم وأشخاصهم .

وهناك الدخول في حملات الطعن والتشهير والاتهام .

وهناك الدخول في حرب الاستنزاف ، وخاصة الاستنزاف البشري أو ما يمكن التعبير عنه بحرب الاستقطاب ، أي العمل على استقطاب المنتمين إلى الصف الآخر ، وقد يقع هذا من طرف واحد ، وقد يكون متبادلاً .

وأخيرًا فهناك الاقتتال ، وسواء كان عبر (فلتات) يقع فيها أفراد من حين لآخر ، أو كان قتالاً جماعيًا معدًا له ، فهو إنما يعبر عن شدة التعبئة العدائية الجارية ، وهذه الدرجة نادرة الحصول في صفوف الحركة الإسلامية ، ولكنها على كل حال حصلت (كما حصل في أفغانستان) ، وما حصل مرة ، يمكن أن يحصل مرة أخرى أو مرات إذا لم نعتبر .

الآثار السلبية للتعدد

التعدد التنظيمي داخل المجتمع الإسلامي وداخل الحركة الإسلامية ليس سيئًا في حد ذاته ، بل قد يكون منتجًا وفعالاً ، أو على الأقل لا ضرر فيه ، كما أوضحت ذلك في الصورة الأولى من صور التعدد(التعدد مع الائتلاف) .

ولكن أضرار التعدد ومفاسده تبدأ مع الصورة الثانية ، وتشتد وتستفحل مع الصورة الثالثة من صوره ، وهي المعنية أكثر (أي الصورة الثالثة) بما سأبينه من الآثار السيئة للتعدد التنظيمي في صفوف الحركة الإسلامية .

١- فقدان صفة الوحدة الإسلامية :

المفروض في الحركة الإسلامية أن تكون أكثر فئات الأمة الإسلامية التزامًا بالإسلام واتصافًا بأوصافه واحترامًا لأحكامه ، ومن ذلك تحقيق الوحدة بين المسلمين أفرادًا وجماعات وأقطارًا . وحين تدخل الحركة الإسلامية في أشكال من الانغلاق والانعزال تجاه بعضها البعض فيصير لكل جماعة كيانها الخاص وشؤونها الخاصة ، وتدبيرها الخاص ، بلا تشاور ولا تعاون ولا تواصل مع غيرها من جماعات الدعوة والإصلاح ، حين يحصل هذا ويستمر يكون الواقعون فيه قد فقدوا في أنفسهم صفة الوحدة الإسلامية ، فكيف يحققونها لمن حولهم من المسلمين ؟!

إن الحركة الإسلامية وهي تجاهد لإحياء المعاني والقيم والمبادئ الإسلامية ، على صعيد الأفراد والمجتمعات ، ينبغي أن تكون أول من يجسد ذلك كله في

صفوفها وتوجهاتها وممارستها ، وبقدر إخلالها بمبادئ الإسلام وأحكامه ، بقدر ما تفقد من شرعية قيامها ومن حجية دعوتها .

وغير خافٍ ـ من جهة أخرى ـ أن فقدان صفة الوحدة يعني فقدان عنصر من أهم عناصر القوة والمقدرة والفعالية ، مما يعني العجز ـ مثلاً ـ عن كثير من الأعمال والمبادرات الكبيرة ، حيث لا تستطيع الجماعة المنفردة المنعزلة تحقيق ذلك بإمكاناتها الخاصة ، وتستطيع ذلك لو تعاونت مع غيرها .

٢- تعميق الفرقة داخل جسم الأمة :

ذلك أن الجماعات الفاقدة لكل مظاهر الوحدة والأخوة ، لن تفعل في هذا المضمار سوى أن تضيف إلى جسم الأمة الممزق نموذجها ونصيبها من التجزئة ، ثم تبذل مجهوداتها « الدعوية » لتوسيع ذلك النموذج ، فيتسع بذلك الخرق على الراقع ، وتتولد داخل المجتمع مجتمعات وداخل الجماعة المسلمة جماعات ، وتنضاف إلى الكيانات كيانات ، وبقدر ما تنجح جماعات هذا شأنها في استقطاب الأفراد وضمهم ودمجهم في كيانها الخاص ، بالقدر ذاته يكون « نجاحها » في التفرقة والانفصال داخل جسم الأمة وكيان المجتمع .

٣- تبديد الطاقات :

كثيرة هي الطاقات والإمكانات والجهود التي تذهب سدى وتفوت على الأمة ثمراتها وآثارها « بفضل » التعدد السلبي الانعزالي :

فالجهود التي كان يمكن توفيرها أو تقليلها بفضل الوحدة أو بفضل التعاون والتنسيق ، تعتبر جهودًا ضائعة .

والجهود التي تبذل في الاستقطاب من جماعة لأخرى تعتبر جهودًا ضائعة سواء أنتجت أو لم تنتج .

والجهود التي تبذل في التشهير بجماعة أخرى منافسة ، تعتبر جهودًا ضائعة .

والجهود التي تصرف للرد والدفاع عن النفس جهود ضائعة .

والجهود التي تصرف لحل مشاكل الفرقة وإصلاح ما تفسده جهود ضائعة .

وما يقال عن الجهود يقال عن الأموال والأوقات وسائر الوسائل والإمكانات .

٤- جعجعة بلا طحين :

حينما يتسع الصراع بين الجماعات الإسلامية ـ أو غيرها ـ ويمتد في الزمان ، فإن النتيجة العامة لذلك الصراع هي أن كل طرف ـ « ينجح » في شل قدرٍ ما من مقدرة الطرف الآخر وإنتاجه ، وتكبر مساحة الجهود المشلولة بقدر ما يشتد الصراع ويستمر ويتكافأ . ولهذا نجد جهودًا كبيرة تبذل وتضحيات جليلة تقدم ، والنتيجة ضئيلة ، أو لا شيء ، والأمور تراوح مكانها ، أو تتراجع ، أو تتأرجح بين التقدم والتراجع ، والسبب غالبًا هو حروب الاستنزاف . وطبعًا فإن الاستنزاف الداخلي المتبادل بين الجماعات الإسلامية ، ينضم إلى الاستنزاف الخارجي المسلط عليها من خصومها الكثيرين ، وللمستشار طارق البشري تصوير بارع للمآل الذي تؤول إليه الصراعات الداخلية والحركات الساعية للتغيير ، وهو تصوير لم تقصد به الصراعات

الداخلية للجماعات الإسلامية . ولكنه ينطبق إلى حد ما على بعض الحالات القائمة في أوضاع الحركة الإسلامية يقول : « إن أية قوة يتحول حسابها إلى صفر ، إذا شقت نصفين ووضع بين مقداريها علامة الطرح لا علامة الجمع ، وبمعنى آخر تنمحي أية قوة إذا جزئت ، وأثير الصراع بين بعضها البعض ، فينطرح بعضها من بعض بقدر ما تكون القوتان المتصارعتان متكافئتين ، وفي حدود التكافؤ بين الأجزاء المتصارعة .. فمع اتجاه المتنافيين إلى التساوي تتجه الحصيلة إلى الصفرة »[1].

شيء من هذا يحصل أحيانًا في صفوف الحركة الإسلامية ، فيجعل طحنها بلا طحين ، أو يجعل طحنها يقع على ذاتها ، نسأل الله العفو والعافية .

٥- فتنة الناس وتنفيرهم :

نتيجة أخرى تجنيها الحركة الإسلامية من الفرقة والتعددية المتصارعة ، وهي أن كثيرًا من الناس حين يقتربون من الفصائل المتنافسة ، أو تقترب منهم تلك الفصائل ، وحين يستمعون إلى خطاباتها وعروضها ، يجدون في ذلك تضاربًا وتنافيًا ، ويجدون منافسات ومزايدات ، وأنهم هم ساحة تلك المنافسات والمزايدات ، ويجدون طعونًا وتشكيكات ؛ فيحتارون من يصدقون ، وبمن يثقون ، ومع من يلتزمون ويمضون . وكثيرًا ما ينفضون أيديهم من الجميع .

بل إن كثيرين قد ينسحبون من هذه الجماعات المتصارعة بعد أن دخلوا فيها وعملوا في صفوفها ، لأنهم لا يريدون الانخراط في هذه الحالة المذمومة ، ولا

---

(١) من تقديمه لكتاب (مقدمات في البعث الحضاري) للدكتور سيد دسوقي حسن (ص١٢) .

أن يكونوا شركاء في أعمال هدامة ، أو لأن الحيرة استبدت بهم .

وأذكر أني كلمت ـ منذ سنوات ـ واحدًا من العلماء الفضلاء عن صديق له من الدعاة الرواد ، كلمته في شأن اعتزاله وابتعاده عن صف الحركة فأبلغني عنه قوله : إنه لا يريد العمل في الأوحال!

فليحذر الذين يريدون إنجاح حركاتهم وتكثير صفوفهم بمحاربة غيرهم وإقصاء إخوانهم ، فليحذروا من هذه النتائج العكسية عليهم وعلى دعوة الإسلام برمتها .

ومن الحقائق المؤسفة الطريفة ما يردده بعض الدعاة عن بلدهم ، من أن كبرى الجماعات الإسلامية عندهم هي « جماعة اللامنتمين » ، ويعنون بهم الشباب الإسلامي المنسحب من مختلف الجماعات أو الذين عزفوا أصلاً عن الانضمام إليها ، وذلك بسبب تفرقها وتصارعها ، وبسبب سلبيات أخرى ، فصار مجموعهم أكثر عددًا من أي جماعة منظمة ، بعد أن مروا جميعًا ـ بدرجة أو بأخرى ـ بتلك الجماعات ، ولا يخفى أن أعدادًا أخرى من المستائين قد لا يقفون عند حدود الانسحاب التنظيمي ، بل ينزلقون إلى ما هو أسوأ .

*****

الأسباب والعلاج

بعد أن عرضت في الفقرة السابقة أهم الأضرار التي تجنيها الحركة الإسلامية من جراء أشكال سيئة من التعدد والتفرق الذي تعرفه من حين لآخر ، ومن بلد لآخر ، سأعمل في هذه الفقرة على النظر في الأسباب التي تفضي إلى تلك النتائج الوخيمة .

وحيث إن هذه الأسباب تدور مع تلك النتائج طردًا وعكسًا ، فالكلام عنها ينطوي تلقائيًا ، أو تبعًا ، على الكلام في العلاج ، فكل سبب يجر إلى ضرر معين ، فزواله واستبدال ضده به هو العلاج . ولهذا جاءت هذه الفقرة المتناولة لأسباب الأضرار والنتائج السيئة للتعددية المذمومة متناولة في آن واحد الوجه الآخر المطلوب ، الذي يتمثل فيه العلاج والوضع السوي . وقد انتهى نظري إلى تحديد تلك الأسباب في سبع آفات جامعة ، وهذه الآفات السبع قلما تجتمع كلها في حالة واحدة ، ولكنها أيضًا قلما وجدت واحدة منها واستمرت إلا تولد عنها غيرها أي : إن هذه الآفات يتولد بعضها عن بعض ، وهكذا يستمر التوالد إذا لم يتدارك بشيء من التصحيح والعلاج ووقف أسباب الداء .

١- القطيعة بين الجماعات :

القطيعة بين المسلمين أفرادًا وجماعات محرمة شرعًا ، وتزداد حرمة إذا ترتبت عنها أضرار ومفاسد للأمة ، وهو ما يحصل عادة في القطيعة بين الدعاة وقادة الحركات الإسلامية .

والقطيعة بين الجماعات قد تكون أحيانًا من غير عمد ولا إصرار فتكون مثلاً ناتجة عن ظروف أمنية لا تسمح بالتواصل والتزاور، وهذه ضرورة ينبغي أن تقدر بقدرها، وألا يتجاوز فيها حد الضرورة.

وقد تكون القطيعة ناتجة عن مجرد تقصير وتشاغل، وهذه قد لا تدخل في دائرة الحظر، ولكن التمادي فيها وعدم مبادرة أي طرف إلى الاستدراك وقطع هذه القطيعة، من شأنه أن يفوت على الحركة الإسلامية مصالح لا يحق لأحد تفويتها وتضييعها، كما أنها قد تنتج تغيرًا في النفوس والمواقف، وقد تحرك ظنونًا وتأويلات، فيدب الفساد في العلاقات، وتلك هي الحالقة، كما جاء في الحديث. ولكن الأسوأ من هذا وذاك، هو أن تكون القطيعة مقصودة ومقررة منذ البداية، وهذه عادة ما تكون ناتجة إما عن عدم «اعتراف» أحد الطرفين بالآخر، فيعمد إلى مقاطعته إمعانًا في تجاهله ونفيه، أو عن كراهية نشأت بين الطرفين، لا تستطيع النفوس تجاوزها، أو عن شعور بالاستعلاء والاستغناء، لدى أحد الطرفين أو لديهما معًا. وفي هذه الحالات كلها، لا يوجد أي مسوغ يخرج القطيعة عن التحريم الشديد الذي خصها به الشرع، وحسبنا من ذاك حديث الصحيحين عن أنس ﷺ قال ﷺ: «**لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عبد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**».

وإذا كان هذا في شأن عامة المسلمين، وفي شأن العلاقات العادية بينهم، فكيف بمن يعتبرون - أو ينبغي أن يكونوا - خيرة هذه الأمة؟ وكيف بأهل العمل والدعوة؟ وكيف بمن قطيعتهم تعطل التعاون على تحقيق المصالح

العامة ودرء المفاسد العامة؟ وكيف بمن قطيعتهم تعطل التشاور والتبادل والتفاهم بين أهل الدعوة وقادتها؟ وكيف بمن قطيعتهم تؤدي إلى تعميق الفرقة والتشتت داخل جسم الأمة ، فضلاً عن الحركة الإسلامية ؟

إن الواجب الذي لا غبار عليه ، هو محافظة الدعاة وقادة الحركة الإسلامية على التواصل المستمر بينهم ، ووضع حد لكل أشكال القطيعة والانفصال ، وإقامة حد أدنى - على الأقل - من التفاهم والتعاون بينهم .

٢- تفشي الأهواء :

معظم الأهواء التي تستعبد الناس وتستولي على تفكيرهم وتصرفاتهم لها أصل فطري في النفوس البشرية ، ولها في أصلها وظيفة إيجابية تؤديها إذا استعملت استعمالاً سويًا وفي حدود الاعتدال والانضباط ، ولكنها كلما أفلتت من الرقابة والضبط ، صارت عنصر إفساد لكل شيء في حياة الإنسان وشخصيته .

وكون الأهواء لها أصل عميق في النفوس البشرية يجعلها تنمو وتترعرع بشكل خفي وتلقائي إلى أن تستبد بصاحبها وهو لا يدري ؛ ولهذا فما أكثر ما يبدأ الناس أعمالهم ، ويشرعون في مشاريعهم الدعوية والخيرية وهم على درجة كبيرة من الصدق والإخلاص والتجرد ، ثم بعد ذلك تتحرك الأهواء في غيبة الرقابة والمحاسبة ، تتحرك لابسة لبوس الغيرة والحماس والتضحية ، وهذا الانقلاب التدريجي في البواعث والمؤثرات قلما يحس به ، وقلما يعترف به صاحبه ؛ لأن عهده بنفسه أنه أقبل على البذل والاجتهاد والتضحية « في سبيل

الله » فيبقى مصرًا على أن كل ما يصدر عنه إنما هو في سبيل الله ولمصلحة الإسلام والمسلمين!

ومن الأهواء التي تتحرك عادة في أجواء العمل الجماعي : حب الظهور والشهرة ، وحب الرياسة والزعامة ، وحب التكاثر ، وحب التفوق على المنافسين .

وفي موضوعنا ـ موضوع التعدد الهدام ـ فإن هذه الأهواء كثيرًا ما تجر إلى صراعات ومنافسات تتحطم عندها وحدة المسلمين وأُخُوَتِهِمْ وأخلاقهم .

وقد اعتنى الشرع بموضوع الهوى ، وبالغ في التحذير منه ، وفي العمل على كبحه وضبطه ، ومن هنا قرر الإمام أبو إسحاق الشاطبي أن « المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدًا لله اختيارًا ، كما هو عبد لله اضطرارًا »[(١)] ، كما اعتنى بهذا الموضوع وبأضراره على الحركة الإسلامية عدد من الدعاة والعلماء المعاصرين ، وما ذلك إلا لما لمسوه من ضرر وبيل تجنيه الدعوة الإسلامية من تفشي الأهواء في صفوفها وإفسادها لكثير من جهودها وأعمالها وعلاقاتها ؛ وفي هذا يقول الدكتور يوسف القرضاوي : « وهذا ما لمسته للأسف الشديد في كثير من ألوان الخلاف التي وقعت ـ ولا تزال تقع ـ بين الجماعات والحركات الإسلامية بعضها وبعض ، وبين الأجنحة المختلفة داخل الجماعة الواحدة ، وبين الأفراد القياديين بعضهم وبعض ، فكثير منها يرجع إلى أمور شخصية ، وتطلعات ذاتية ، وإن كانت تغلف بالحرص على

---

(١) الموافقات (٢/ ١٦٨) .

مصلحة الإسلام أو الجماعة، أو غير ذلك مما يدق ويخفى حتى على الإنسان نفسه فيزين له سوء عمله فيراه حسنًا ...»[١]، والعلاج الوحيد لهذه الآفة، وهو لحسن الحظ لا ينكره أحد، ولا يناقش فيه أحد هو - كما يقرر د. القرضاوي :

« الإخلاص لله وحده، والتجرد للحق، ومجاهدة النفس حتى تتحرر من اتباع هواها أو أهواء غيرها »[٢].

ولكن قبل هذا وبعده، يحتاج الناس إلى المراقبة والمحاسبة الدائمتين لأنفسهم وبواعثها، ويحتاجون إلى جو جماعي متيقظ محذور من الأهواء، بدل الأجواء المغذية والمساعدة على تحريك الأهواء وتبريرها وتزكيتها .

٣- العصبيات :

تعصب الناس للأمور التي ينتمون إليها أو تنتمي هي إليهم، صفة شائعة وعريقة فيهم، فالناس يتعصبون لبلدانهم، ولأوطانهم ولأقوامهم ولآبائهم وأجدادهم، ولشيوخهم وزعمائهم، ولأحزابهم ومذاهبهم كما يتعصبون لكل من ينتمي إليهم، كأولادهم وأتباعهم وأفكارهم وتصرفاتهم، ويكاد المرء يعد هذا النزوع البشري غريزة في الناس، وسواء كان الأمر كذلك أم لا، فهي صفة لا يتأتى تخفيفها إلا بكثير من التربية والمعالجة والترقية الخلقية والعلمية .

والحركات الإسلامية حين تهمل معالجة هذه الآفة وترقيتها، فإنها لاشك

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (١٩٣) .

(٢) السابق نفسه .

تنتشر فيها بأشكال متعددة ، ينتشر فيها التعصب للقطر والبلد والتعصب للحزب والجماعة ، والتعصب لمواقف الجماعة واجتهاداتها والتعصب للزعماء والقادة ... ويزداد هذا التعصب استفحالاً وخطورة إذا كان زعماء الجماعة هم الذين يرعونه ويعملون على تنميته وتقويته .

وقد عانت الحركة الإسلامية من آثار العصبيات لدى بعض فصائلها ، وبصفة خاصة التعصب للجماعة ولأفضليتها وأحقيتها بالاتباع ، والتعصب للقادة وأفضليتهم وعظمة مزاياهم وسلامة أفكارهم واجتهاداتهم .

وروح العصبية تجعل صاحبها ميالاً - بصورة عامة ودائمة - إلى تفضيل ما هو متعصب له ، وإلى نصرته ، وإلى إيثاره ، وإلى وصفه بكل ما يمكن من صفات الحسن والكمال ، وتنزيهه بكل ما يستطيعه عن النقائص والعيوب والأغلاط والمتعصب ينظر نظرة معاكسة إلى كل ما هو مضاد أو منافس أو مخالف لما هو متعصب له من جماعة أو شخص أو فكرة على نحو ما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المساويا

وإن مما يُنَمِّي العصبية الحزبية داخل الجماعات استدامة المدح والثناء والتعظيم والتنزيه ، وتدعيم ذلك بالموجبات « الشرعية » التي يتم توظيفها باسم الولاء للجماعة ، والوفاء لمبادئها ، والحرص على مصلحتها .. ويزداد الأمر رسوخًا إذا كان هذا يتم في غيبة أي مراجعة للأعمال أو تقويم لها أو نقد لمساراتها ونتائجها ، على أن هذه المراجعة والنقد والتقويم لكي تعطي آثارها

البناءة ، وتحول دون تفشي التعصب الأعمى وغيره من الانحرافات ، يجب أن تتم على نطاق واسع بين أفراد الجماعات ، فضلاً عن قادتها .

٤- فقدان النظر العلمي :

ومن الآفات التي تتلازم وتتعايش مع الأهواء العصبيات : فقدان النظر العلمي . ذلك أن النظر العلمي لا يسمح بالاسترسال في الأحكام المتعصبة العمياء ، كما أنه يصادم الأهواء ويكشفها . الأهواء والعصبيات تصم وتعمي وتقلب الحقائق والموازين ، والنظر العلمي يضع الموازين القسط ، ويكشف الحقائق ويقومها ويقررها كما هي الأهواء والعصبيات تنحى الأدلة العلمية وتعطل مفعولها ، أما النظر العلمي فيسير مع الدليل حيث سار ، ويدور معه حيث دار الأهواء والعصبيات تعطل الأسماع والأبصار والأفئدة كما قال البيروني : « إن العصبية تعمي الأعين البواصر ، وتصم الآذان السوامع ، وتدعو إلى ارتكاب ما لا تُسامح باعتقاده العقول »[١].

بينما النظر العلمي يحفظ هذه الوسائل العلمية ويهتدي بها ويرشد عملها أكثر فأكثر .

وسواء تعلق الأمر بفهم الشرع وأحكامه ، أو بفهم الواقع وأحواله أو بتقدير المستقبل واحتمالاته ، أو بتقويم الشخص ومؤهلاته ، فإن النظر العلمي يطلب الدليل ويقول بمقتضاه أيًا كان . أما حينما تتفشى الأهواء وتسود

---

(١) من كتابه (الآثار ص٦٦) ، عن مجلة (المسلم المعاصر) العدد المزدوج (٥١، ٥٢) مقال الدكتور بركات محمد مراد سيد (أسس وأخلاقيات البحث العلمي عند البيروني ص٢٦٥) .

العصبيات للجماعة ، ولمصلحة الجماعة ، وللقيادة ومكانة القيادة ولقراراتها واختياراتها . فحينئذ يتقهقر النظر العلمي للأمور وتتم معالجتها بسطحية واستعجال ، ومن خلال مسبقات ومسلمات لا تقبل النقد ولا المراجعة ، وفي أجواء من النفور من أي تمحيص علمي نزيه يمكن أن يصدم المسبقات والمسلمات أو يزعزعها ، أو يمكن أن يعرقل القرارات والمبادرات المتخذة ، أو يمكن أن يشوش على السياسات المتبعة وفي هذه الأجواء عادة ما يتم إبعاد - أو ابتعاد - كل الذين يفكرون بطريقة مغايرة ويزنون بموازين محايدة . وبهذا تزداد الجماعة بعدًا عن النظر العلمي ، وتزداد الأجواء العلمية اختفاء من ساحتها .

وبعض الدعاة يرون أن الدعوة إلى التزام « المنهج العلمي » أو « التفكير العلمي » في أمور الدعوة وغيرها من أمور الحياة ، يرون في هذا شيئًا دخيلاً وغريبًا على ساحة الإسلام والإيمان ، وأنه مجرد أثر من آثار الفكر الغربي والثقافة الغربية التي تقدس العلم وتجعل منه وثنًا يعبد من دون الله . ومن هذا المنطلق يؤكد الأستاذ عدنان النحوي : « أن للإسلام منهجًا متميزًا في التفكير ، وللإيمان قواعد متميزة في التأمل والتدبر ، ونسمي هذا المنهج (المنهج الإيماني في التفكير) ليحل هذا المصطلح محل المصطلح السابق ، وليشمل كل حسنات المصطلح السابق ويلغي سيئاته من تقديس العلم وجعله وثنًا يعبد من دون الله »[1].

وأنا أتعجب كيف أن الدعاة - وحتى كبار الدعاة - يجدون في أنفسهم

(١) نهج الدعوة وخطة التربية والبناء (١٥٧، ١٥٨) .

وتفكيرهم وجهدهم متسعًا لخلق خصومات والاشتغال بها وعرضها للعموم ، خصومات لا يدعو إليها دين ولا عقل ولا مصلحة وإلا فأي محظور وأي ضرر في الدعوة إلى « المنهج العلمي ؟!» وأي مصلحة في فتح معركة ضد مصطلح أصيل في ديننا وتراثنا لفظًا ومضمونًا؟

وما هي الفائدة المنتظرة من محاربة مصطلح واضح مفهوم مستتب محدد المضامين والسمات ، وتعويضه بمصطلح غامض يستعمل للمرة الأولى ، وهو مصطلح (المنهج الإيماني في التفكير؟) ولست بحاجة لأن أصف هذا المصطلح بعدم الصلاحية ، أو بعدم الدقة .. بل يكفي لرده أو التحفظ منه أن أقول : إنني - مثل عدد من القراء أو ربما مثل كل القراء - لم أفهم منه معنى محددًا واضحًا مضبوطًا ، ومثل هذا ينطبق على القول بأن « للإسلام منهجًا متميزًا في التفكير ؟ » ، وأن « للإيمان قواعد متميزة في التأمل والتدبر ؟؟» .

أما حكاية تقديس العلم واتخاذه وثنًا يعبد من دون الله ، فإنها لا تطوف بساحتنا ولا بخيالاتنا ، وهل تقديس العلم يجتمع مع الوثنية ويفضي إليها؟ إن تقديس العلم هو سبيل التوحيد وقرينه ، وطريق الحق ودليله . فيا ليت قومنا - بما فيهم الإسلاميون - قد اقتربوا من تقديس العلم ومناهجه وحقائقه ، إذًا لكنا بألف خير .

إن مشكلتنا هي أن صوت العلم عندنا مبحوح ومغمور ومغلوب ، ولذلك كثيرًا ما تتحكم في أعمالنا وأفكارنا وتقديراتنا الأوهام والعواطف والمشاعر والأهواء والعصبيات .

٥- فقدان القدرة على الإنصاف :

وأنا لا أقصد عدم الإنصاف مطلقًا فكل الناس - سوى المعصومين - عرضة للوقوع في عدم الإنصاف ، في أحكامهم ، وتقويماتهم وتصرفاتهم ، بعضهم يقع في ذلك كثيرًا ، وبعضهم لا يقع في ذلك إلا قليلاً أو نادرًا . وإنما الذي أقصده فقدان القدرة على التفكير النزيه المنصف ، وفقدان القدرة على التصرف المنصف ، وأيضًا لست أقصد الفقدان المطلق للقدرة على الإنصاف ، فهذا لا يصل إليه إلا من لم يُبقِ من الجهالة والجهل والبلادة شيئًا ، وهو ما ينتزه عنه كل صاحب دين وخلق وإنما أقصد فقدان القدرة على الإنصاف في مواطن معينة هي تلك التي دخلها الهوى والعصبية ، وخرج منها النظر العلمي .

ومعنى هذا أن الآفة التي أتحدث عنها الآن هي ثمرة اجتماع الآفات الثلاث السابقة ، وهي كلها آفات متداخلة متولد بعضها من بعض كما ذكرت من قبل ، وحين يفقد صاحب الهوى والعصبية القدرة على الإنصاف وسلامة التقدير وسداد الحكم ، فإنه لا ينفعه تمسحه بالأدلة الشرعية ومحاولته الاعتماد عليها ، لأن التعامل الصحيح مع الأدلة العلمية يفترض أول ما يفترض التحرر من ربقة الهوى والتعصب ، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي : « وإذا دخل الهوى أدى إلى اتباع المتشابه حرصًا على الغلبة والظهور بإقامة العذر في الخلاف ، وأدى إلى الفرقة والتقاطع والعداوة والبغضاء ، لاختلاف الأهواء وعدم اتفاقها ، وإنما جاء الشرع بحسم مادة الهوى بإطلاق ، وإذا صار الهوى بعض مقدمات الدليل لم ينتج إلا ما فيه اتباع الهوى »[1] .

---

(١) الموافقات (٤/٢٢٣) .

ومن الممارسات المألوفة في مثل هذه الحالات أن يصبح المتمون إلى الأحزاب والمذاهب والجماعات مناصرين ومعظمين ومنزهين لما عندهم وعلى كل حال . كما يصبحون مُخْطِئِين ومنتقصين لما عند مخالفيهم وعلى كل حال أيضًا . وهو ما يؤدي إلى تغير القلوب وفساد النفوس وانقلاب الثقة والتقدير وحسن الظن إلى أضدادها . وشبيه بهذا الذي يحصل بين أتباع بعض التنظيمات الإسلامية اليوم ، كان يحصل بين أتباع الفرق الكلامية قديمًا ، وعنهم يتحدث ابن القيم بقوله : « فليتأمل اللبيب الفاضل ماذا يعود إليه نصر المقالات والتعصب لها والتزام لوازمها وإحسان الظن بأربابها - بحيث يرى مساويهم محاسن - وإساءة الظن بخصومهم - بحيث يرى محاسنهم مساوئ - كم أفسد هذا السلوك من فطرة ، وصاحبها من الذين يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم الكاذبون »[(١)] . ويقول في موضع آخر : « وهذه آفة ما نجا منها إلا من أنعم الله عليه وأَهَّلَهُ لمتابعة الحق أين كان ومع من كان ، وأما من يرى أن الحق وقف مؤبدًا على طائفته وأهل مذهبه ، وحجرًا محجورًا على من سواهم ممن لعله أقرب إلى الحق والصواب منه ، فقد حرم خيرًا كثيرًا وفاته هدى عظيم »[(٢)] .

فهذه الآفة - فقدان صفة الإنصاف - كما نرى ليست خاصة بالتنظيمات الإسلامية اليوم ، ولكنها توجد حيثما وجد التعصب والهوى وفقد النظر العلمي النزيه ، ولهذا نجد هذه الآفة اليوم ضاربة الأطناب في الخطابات السياسية والحزبية والأيدولوجية ، وقد أجاد في توضيح هذه الآفة (روبرت

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/ ٧٥) .

(٢) المصدر السابق .

هـ. ثالوس) في كتابه المترجم إلى العربية بعنوان (التفكير المستقيم والتفكير الأعوج) . ومن أمثلة ذلك قوله : « فإذا ألقى خطيب من حزبنا خطابًا فصيحًا متدفقًا قلنا عنه : إنه خطيب بليغ ، أما إذا خطب خطيب من الحزب المناوئ بنفس الطريقة فإنا نقول : إنه متفيهق ، ونحن نصف اقتراحات حزب المعارضة - وإن كانت عملية - بأنها (شفاء من كل داء في لغة المشعوذين من الأطباء » ، وهي عبارة ممعنة في معناها الانفعالي ، وتثير فينا انفعالات استهجان قوية كتلك التي نشعر بها نحو الأدوية التي يصفها المشعوذون ، ويفرطون في ادعائهم بفوائدها الطبية ، كما أن المتحدث يصف أولئك الذين يبدون تحمسًا في تأييدهم لبعض الاقتراحات التي لا يقرها بأنهم « متطرفون » ، ولو أن أناسًا من جماعته أبدوا من التحمس والاهتمام ما أبداه الآخرون لكانوا في رأيه « أشداء في الحق ... »[1] .

هذه بعض مظاهر فقدان النزاهة والعدل والإنصاف لدى الفئات المتشبعة بالتعصب واتباع الهوى واطّراح النظر العلمي .

إنها تمارس التطبيق الجاهلي لمقولة : « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** » ، وتضيف إليها : « **عارض خصمك محقًا أو مخطئًا** » ، وهذا الأسلوب في التعامل مع الغير يدفع إلى المعاملة بالمثل ، ثم إلى الرد ، والرد على الرد .. إلى أن يصبح هو الأسلوب المعتمد لدى الطرفين أو الأطراف ، وإلى أن يصبح معتادًا ومقبولاً لديهم ، فيصبح مصدرًا مستقرًا من مصادر الخصومة والفرقة والصراع .

---

(١) التفكير المستقيم والتفكير الأعوج (ص١٧ ، ١٨) ، سلسلة عالم المعرفة الكويتية .

أما الإسلام ـ ومعه كل نظر علمي نزيه ومنصف ـ فيقضي بأن تنصر المظلوم، أخاك كان أو عدوك، وأن تقف في وجه الظالم أخاك كان أو عدوك، وأن تؤيد المحق ولو كان خصمًا لك، أو بعيدًا عنك وأن تعارض المبطل ولو كان حزبك وعشيرتك: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء:١٣٥].

وقد أعطانا القرآن الكريم أحكامًا نموذجية في إنصاف الخصوم والمخالفين، وحتى الأعداء، فاستحسن منهم ما يستحق الاستحسان وأقر لهم ما يستحق الإقرار، واستثنى من بعض مساويهم من يستحق الاستثناء، في سورة آل عمران نقرأ عن أهل الكتاب أنهم: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران]. ونقرأ أيضًا: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران:٧٥]، ونقرأ أيضًا:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران] ، فأثبت التحريف والكذب على الله لفريق منهم دون سائرهم .

وكثيرًا ما تحدث عن ضلالات الكتابيين والمشركين فعبر بـ « أكثرهم » كقوله : ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] . ﴿أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام] .

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف:١٠٢] ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات] .

ولقد أيد الله تعالى قول امرأة مشركة لما نطقت بكلمة حق وصدق . وقالت : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ فحكى الله قولها هذا في كتابه العزيز وأيده بقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل] ، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي : « ألا ترى أن ملكة سبأ في حال كونها تسجد للشمس من دون الله ، هي وقومها ، لما قالت كلامًا حقًا صدقها الله فيه . ولم يكن كفرها مانعًا من تصديقها في الحق الذي قالته »[1].

وروى ابن حزم بسنده إلى عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال لرجل استنصحه : اعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وزل مع القرآن حيث زال ، ومن أتاك بحق فاقبل منه ، وإن كان بعيدًا بغيضًا ، ومن أتاك بالباطل فاردده وإن كان قريبًا حبيبًا[2].

---

(١) أضواء البيان ، تفسير القرآن بالقرآن (١/ ٦) .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٤/ ١٨٥) .

هذا هو المنهج الذي من شأنه أن يجمع بين المتفرقين ، ويؤلف بين المختلفين ، ويحابب بين المتعادين : ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] .

٦- فقدان القابلية للنقد :

وهذه الآفة متداخلة مع الآفات الأربع السابقة ، فهي تتغذى منها ، وهي أيضًا تغذيها ، وعلاقة هذه الآفة بموضعنا هي أنها ـ من جهة ـ تنمي الإعجاب بالذات والإيمان العميق بسلامتها ونزاهتها ، ومن ثم شدة التعصب لها . ثم هي من ـ جهة أخرى هي المقصودة الآن ـ تجعل أصحابها ـ من أفراد أو جماعات ـ ينظرون إلى كل نقد يوجه إليهم على أنه معاداة لهم وحرب عليهم وانتهاك لحماهم . فيبادرون إلى معاداة أصحابه ومواجهتهم بما يتطلبه « المقام » في نظرهم ، وتتحرك عقلية « رد الصاع صاعين » ، وهكذا تشتعل المعركة ، وتتعمق الخلافات ، وكل هذا لمجرد أن الناس عودوا أنفسهم على سماع المدح والثناء والتأييد والإطراء دون أي نقد أو اعتراض أو نصح ، فنشأت لديهم حساسية مفرطة ضد النقد والتخطئة والمعارضة ، وهذه ـ في الحقيقة ـ صفة المغرورين والمتكبرين الذين جاء فيهم قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف] . وجاء في بعضهم : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] ، يقول العلامة المودودي رحمه الله : « وأما كراهية النقد وإظهار الغضب والسخط عليها ، فإنما هو دليل على استكبار الإنسان واغتراره بنفسه »[(١)].

---

(١) تذكرة دعاة الإسلام (٧٩) .

أما المسلمون ـ فضلاً عن الدعاة إلى الإسلام ـ فالمفروض فيهم ، واللائق بهم أن يتلقوا النقد والنصح بترحيب وفرح ، ويتلقوا المدح والثناء بتحفظ وحذر ، فالناقد الناصح إن لم ينفع لم يضر ، وغالبًا ما ينفع ، المادح الممجِّد إن لم يضر لم ينفع وغالبًا ما يضر ، والحقيقة أننا يجب أن نرحب بالناقد الناصح حتى حين نكون معتقدين غلطه فيما ينتقده ، وفيما ينصح به ، لأننا حينئذ نكون مقدرين ومرحبين بالنقد من حيث المبدأ ، ونكون شاكرين للنصح من حث هو نصح ، وبغض النظر عن الإصابة والخطأ في هذه المسألة أو تلك . أما من ظهرت لنا وجاهة نقده وصحة مأخذه ، فيجب أن يكون سرورنا به وشكرنا لعمله مضاعفًا . ويجب أن نعوِّد أنفسنا على أن نتلقى الانتقادات ، باحثين عن وجه صوابها وفائدتها قبل أن نبحث عن وجه خطئها لردها والرد عليها ، وعلينا أن نعود أنفسنا الاعتراف والإعلان عن خطئنا إذا تبين ، بنفس الشجاعة والصراحة اللتين نقرر بهما ونعلن آراءنا واعتقاداتنا ، وبهذا نريح أنفسنا من عقدة التنزه عن الخطأ ، ونريح غيرنا من عقدة الخوف من الاتهام والعداوة ، بسبب نقدهم ونصحهم لنا ، ونسد بابًا من أبواب الخصومة والشنآن .

ومن المواقف الرائعة النموذجية في هذا الباب ما حكاه القاضي أبو بكر بن العربي عن محمد بن قاسم العثماني أنه حضر مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهري ، فكان مما قال في درسه : إن النبي ﷺ طلق وظاهر ، وآلى ، قال العثماني : فلما خرج تبعته .. فقلت له : حضرت مجلسك اليوم متبركًا بك ، وسمعتك تقول : آلى رسول الله ﷺ وصدقت ، وطلق رسول الله ﷺ وصدقت ، وقلت : وظاهر رسول الله ﷺ ، وهذا لم يكن ولا يصح أن يكون ، لأن الظهار منكر من القول

وزور ، وذلك لا يجوز أن يقع من النبي ﷺ ، فضمني إلى نفسه ، وقبل رأسي : وقال لي : أنا تائب من ذلك ، جزاك الله عني من معلم خيرًا .

وفي اليوم التالي نادى عليه من بين الناس ودعاه إلى المنبر حتى رآه الناس ، وقال لهم : أنا معلمكم ، وهذا معلمي ، لما كان بالأمس قلت لكم : آلى رسول الله ﷺ ، وطلق ، وظاهر ، فما كان أحد منكم فقه عني ولا ردَّ عليَّ ، فتبعني إلى منزلي وقال لي كذا وكذا...، وحكى لهم ، ثم قال : وأنا تائب عن قولي بالأمس وراجع عنه إلى الحق . فمن سمعه ممن حضر فلا يعول عليه ، ومن غاب فليبلغه من حضر ، فجزاه الله خيرًا . وأخذ يدعو له ، والخلق يؤمنون .

ويعلق ابن العربي بقوله : « فانظروا رحمكم الله إلى هذا الدين المتين ، والاعتراف بالعلم لأهله على رؤوس الملأ ، من رجل ظهرت رياسته واشتهرت نفاسته ، لغريب مجهول العين ، لا يُعرف منْ ولا من أين ، فاقتدوا به ترشدوا »[1].

٧- الاستجابة للتحريش :

من آخر الوصايا التي بثها النبي ﷺ في صحابته ، وخلدها لأمته من بعده قوله في خطبة الوداع : « **إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم** »[2].

---

(١) أحكام القرآن (١/ ١٨٢، ١٨٣) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، ورواه الترمذي في أبواب البر والصلة ، وقال : حسن صحيح .

وهذا يعني أن الموحدين المصلين ، وإن كانوا قد أمنوا من الشرك وعبادة الأوثان ، فليسوا بآمنين من التحريش ، وإثارة العداوات والصراعات بينهم ، كما أن هذا التحذير النبوي ، وفي هذه الخطبة الوداعية الجامعة يشير إلى مدى الخطورة التي يشكلها هذا التحريش بين المسلمين ، المتدينين خاصة ، والحق أنه ما أضر المسلمين عبر تاريخهم شيء كما أضرتهم صراعاتهم فيما بينهم .

وتحذير المسلمين من صراعاتهم الداخلية ومن آثارها المدمرة ، جاء في أحاديث منها حديث مسلم ـ وغيره ـ عن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ : أقبل ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلاً ، ثم انصرف إلينا فقال ﷺ : « **سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها** » .

وهذا يعني أن صراعات المسلمين فيما بينهم موكولة إليهم ، وأنهم مبتلون بمعالجتها ، فإن اتخذوا ما يلزم من الحيطة والحذر لتلافيها وتلافي أسبابها ، فبها ونعمت ، وإلا تركوا يتحملون تبعات تقصيرهم وسوء عملهم .

ومن الأسباب التي تفجر الصراعات بين المسلمين السبب الذي حذر منه الحديث ، وهو « **التحريش بينهم** » . هذا التحريش الذي يباشره الشيطان بنفسه ، فينزغ ويوسوس ، ويزين ويغري .

كما أن التحريش قد يدخل على العلماء ، والرؤساء والزعماء من جهلة

أتباعهم وأنصارهم ، حيث يقوم هؤلاء المتهورون الانفعاليون بالضغط والاستفزاز ضد الجهة المخالفة ، ويقع ذلك بالمبالغة في تضخيم الأمور وتشويهها ، أو بتلقف الأخبار المثيرة ونقلها ما صح منها وما لم يصح ، أو بتصوير الجهة المخالفة على أنها خطر على جماعتهم أو على الإسلام نفسه ...!!

وقد يأتي التحريش من أناس مدسوسين ، لهذه الغاية ولغيرها يشعلون الصراعات والصدامات ويجرون إليها ويحرضون عليها ، متقنعين بقناع الغيرة على الجماعة والإخلاص لها ، والتفاني في نصرتها ومحاربة خصومها .. وكثيرًا ما تجد هذه الفئة التأييد والمساندة من الفئة الأولى ، فتتحد الأفعال ولو اختلفت النيات .

فإذا اجتمعت الفئتان داخل جماعة أصبح التحريش فيها جاريًا ضد غيرها على أشده . وأصبح التحريش خاضعًا للتوجيه والتحكم من قريب ومن بعيد ؛ من قريب حيث الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، ومن بعيد حيث شياطين الإنس يمسكون بزمام عناصرهم المدسوسين .. وقد تكون هناك ضغوط أو مناورات خارجية ، لاستدراج الدعاة والجماعات إلى حرب البيانات والبيانات المضادة ، وقد يمد ذلك حتى يتخذ شكل المؤلفات والمقالات .

وأحيانًا يجري الإيقاع بين الاتجاهات الإسلامية وتأجيج خصوماتها عن طريق الندوات والمناظرات الملغمة ، ويحضرني هنا ما حكاه القاضي عياض عن مجلس من مجالس هارون الرشيد ، اجتمع فيه الإمام مالك والقاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ، فأمر الرشيد مالكًا أن يناظر أبا يوسف وقال له : ناظره يا أبا عبد الله ،

فقال مالك : إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة [(١)].

فما أحوج دعاتنا وعلماءنا إلى بصيرة كبصيرة الإمام مالك ﷺ ، ليميزوا بين المناظرات العلمية الصادقة ، والمناظرات التي ليست سوى مؤامرات يجري إعدادها للتحريش بينهم وضرب بعضهم ببعض ، كما يفعل الصبيان والسفلة بالبهائم والديكة . وحتى إذا لم يُجمع بين العلماء والدعاة والمفكرين والزعماء في مصادمات ومواجهات مباشرة ، فإن وسائل الإعلام تقوم بذلك في شكل استجوابات واستفتاءات وحوارات تتحرى فيها مواطن الإثارة والحرج والتجريح والتعريض .

وبين يدي مثال واضح وقريب (وله نظائر كثيرة في عدد من وسائل الإعلام العربية وغير العربية) : مجلة مغربية أصبحت منذ أعدادها الأولى ذات باع طويل في التحريش بين الدعاة والجماعات الإسلامية بالمغرب ، وبصفة خاصة بين أبرز تلك الجماعات ـ وهما جماعة العدل والإحسان ، وحركة الإصلاح والتجديد ـ قامت بذلك ـ وما زالت ، عن طريق الحوارات والاستكتابات ، فقد حاورت واستكتبت عددًا من البارزين في صفوف الجماعات الإسلامية ، وفي ميدان الدعوة الإسلامية عامة .

وهذه أمثلة للعناوين التي وضعتها المجلة لتلك الحوارات والكتابات ، واضعة قبل العنوان اسم الشخص المصرح ، كما تفعل ذلك الصحف حين تقتطف من بعض التصريحات عناوين بارزة (وأنا أحذف أسماء المصرحين ،

---

(١) ترتيب المدارك (٢/ ١١٩) .

وأثبت فقط العناوين كما هي على غلافات المجلة) :

- يتهموننا بالتجسس ، لكن لصالح من؟ (غلاف العدد ٤) .

- الإصلاح والتجديد تنازلت ، والعدل والإحسان متنطعة (غلاف العدد ٦) .

- ويل للذين يكتبون الكتاب بأيدهم ثم يقولون هذا من عند الله (غلاف العدد ٨) .

- العدل والإحسان تصادر العمل الإسلامي ، وحركة الإصلاح والتجديد تنزع عنها الثقة (غلاف العدد ١٧) .

- مرة أخرى : العدل والإحسان على صراط مستقيم (غلاف العدد ١٧) .

وهكذا تمضي المجلة في أعداد أخرى سبق لي الاطلاع عليها ولكنها ليست بيدي الآن ، تنتزع التصريحات الحساسة ، ثم تستل منها ما شاءت وتصيغها كيف شاءت ، ثم تضعها بشكل بارز لامع مثير!

وهكذا يقع كثير من الدعاة ومن رؤوس الجماعات الإسلامية ، ومن عامة المنتسبين إليها ، في التحريش ، أو في الاستجابة له ، طمعًا في فوائد موهومة ، أو أرباح عاجلة ، أو غير ذلك من الدوافع التي يستغلها شياطين الإنس والجن ، فيشعلون نيران الصراع ويذكونها باستمرار .

ولست أدعو إلى ترك التحاور والتناظر ، ولا إلى وقف النقد والنصح هذا خلاف ما دعوت إليه وألححت فيه من قبل . وإنما الذي يجب الحذر منه هو

وساوس النفس والشيطان التي تدعو إلى مهاجمة المخالفين وانتقاصهم ، أو الرد والانتصار عليهم ، وهو دسائس الخصوم ومكايدهم ، وهو تصارع الأنعام والديكة ، وهو استعمال الألفاظ المهينة والتعابير الجارحة ونشرها على الملأ .

ولنتذكر قوله الله تبارك وتعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء] .

هذه هي الآفات السبع ، أو الموبقات السبع ، التي إذا تسلطت على جماعات المسلمين ، أفسدت علاقاتهم ، ودمرت أخوتهم ووحدتهم وأذهبت ريحهم وقوتهم ، وبددت طاقاتهم وأحبطت أعمالهم .

وإذا سلمت منها الجماعات المتعددة ، أمكن أن يصير تعددها مصدر حيوية وفعالية وتكامل ، وأن يصير اختلافها كاختلاف المجتهدين المخلصين الذين قال عنهم الإمام الشاطبي : « ومن هنا يظهر وجه الموالاة والتحاب والتعاطف فيما بين المختلفين في مسائل الاجتهاد حتى لم يصيروا شيعًا ، ولا تفرقوا فرقًا ، لأنهم مجتمعون على طلب قصد الشارع، فاختلاف الطريق غير مؤثر ، كما لا اختلاف بين المتعبدين لله بالعبادات المختلفة ، كرجل تقربه الصلاة ، وآخر يقربه الصيام ، وآخر تقربه الصدقة إلى غير ذلك من العبادات ، فهم متفقون في أصل التوجه لله المعبود ، وإن اختلفوا في أصناف التوجه »[(١)].

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٢٢) .

فهرس الموضوعات



الفهرس

الموضوع	الصفحة

*****